قراءة

يُقلّب الكاتب والمخرج السينمائي الأميركي صفحات رواية الكندي إيان ريد، التي ترجمتها إلى الإيطالية جوليا دي بيازي، واسوةً بساحر متمرّس، يستخلص منها فيلماً معقّداً ومثيراً للقلق، «أفكّر في إنهاء الأشياء» لا يدعو المتفرّج للمتابعة، بل لتفسير ما يحدث

تشارلي كوفمان لم أفكّر أبداً في إنهاء الأمور

تماماً كما يحدث في كابوس

يوسف وقاص

كلانا يجيد الحوار عن بُعد: أنا بأفكاري وأحكامي المسبقة، وتشارلي كوفمان بلقطات تدفن أي سؤال طارئ، دون أن تتوقّف الشفاه أبداً عن النطق بكلمات لها طعم الثلج. يُفتتح الفيلم باقتباس مطلعه: «حين تستبدّ بالمرء فكرة إنهاء الأشياء، فإنها لا تفارقه، بل تلتصق به وتهيمن عليه، ولا يكون متاحاً القيام بشيء في هذا الخصوص، فهي لن تفارقه».

تكلمي يا عزيزتي لوسي، فالجنس البشري غبي ومتعنّت. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، فهو الوحيد الذي لا يدرك كنه موته، والوحيد الذي، كي لا يواجه هذه النهاية المؤلمة، يفضّل ابتكار الأمل، متوهّماً بأنّ كلّ شيء، عاجلاً أم آجلاً، سيؤول إلى الأفضل. هذا ما يفترضه تشارلي كوفمان، عندما تخيّل في «إنهاء الأمور حتى قبل أن تبدأ».

يقلب كوفمان صفحات رواية الكندي إيان ريد، التي ترجمتها إلى الإيطالية جوليا دي بيازي، واسوةً بساحر متمرّس، يستخلص منها فيلماً معقّداً ومثيراً للقلق، جايك (جيسي بليمونز) ينظر بمضض إلى والديه، بينما لوسي (جيسي باكلي) تعيش تلك اللحظات برعب حقيقي. فيلم لا يدعو المتفرّج للمتابعة، بل لتفسير ما يحدث، للتساؤل إلى أين يقوده كوفمان، في حلم أم في كابوس، في رؤية غيبية أو في عنف الخيال.

بطلة الرواية هي فتاة ذات شعر أحمر ووشاح أصفر توافق على مضض في يوم ثلجي على مقابلة والدي صديقها جايك، الذي كانت قد تواعدت معه منذ عدّة أسابيع. في هذا الجزء الأول من الفيلم، الذي يستمر أكثر من عشرين دقيقة بقليل، نحن في قمرة القيادة داخل السيارة، حيث تتواصل مع أفكار الفتاة التي تذهب لمقابلة والدي جايك، ولكنها تفكر في إنهاء الأمور هناك، بينما جايك الذي يركز على القيادة، يبدو منشغلاً بتخمين ما يدور في رأسها.

«يبدو أنني عرفت جايك لفترة أطول مما عرفته بالفعل. كم ستكون ... شهراً؟ ستّة أسابيع، ربما سبعة؟ يجب أن أعرف ذلك بالضبط. برايي سبعة، نعم. هناك حقاً شيء بيننا، رابطة قوية ونادرة. شيء لم أجرّبه من قبل. التفت إليه واضع ساقي اليسرى تحت فخذي كوسادة. «إذن، ماذا أخبرتهم عني؟».

«لوالدي؟ أخبرتهم ماذا يجب أن يُقال»، أجاب. رمقني بنظرة خاطفة. أنا أحب النظرة الخاطفة. ابتسم. أجده جذاباً للغاية. «أي ماذا؟».

«أي أنني قابلت فتاة جميلة تشرب الكثير من الجن».

«والداي لا يعرفان عنك»، أخبره.

يظنّ أنني أمزح. ولكنها الحقيقة. إنهم لا يعرفون بوجوده. لم أخبرهم عنه. لم أخبرهم حتى أنني تعرّفت على شخص ما. لا شيء. كثيراً ما كنتُ أفكّر في القيام بذلك. لقد أتيحت لي عدّة مناسبات. لكنّني لم أشعر قط بالثقة الكافية».

على الرغم من أنّ الفرضية هي مقابلة والدَي جايك، اللذين يقوم بدوريهما توني كوليت وديفيد ثيوليس، إلّا أننا نفهم على الفور أنّ هناك خطأ ما. فلديهما شيء خاطئ يلاحظه البطل ويلاحظه المشاهد، وهو في هذه المرحلة مستعدّ إلى حدّ ما لأي شيء، حتى لحقيقة أنّ الفيلم يمكن أن يحوّل نفسه من درامي إلى إثارة، مع إمكانية تعرّض حياة الأبطال أنفسهم إلى الخطر.

إذا كنا في البداية، فستكون هذه هي اللحظة التي ندرك فيها أنّ الحلم ينهار، بالمعنى الحرفي والمجازي. نعم، حدث شيء ما. ليس فقط في بنية الواقع، ولكن أيضاً الشكّ في أنه من الآن فصاعداً، سيتعيّن علينا إعادة بناء ما نراه، على الرغم من أننا لن ننجح حقاً. يُظهر لنا كوفمان سلسلة من المتواليات، بعضها حاسم والبعض الآخر بعيدنا إلى الفرضية الأولية المتمثّلة في عدم الجدوى وسوء الحظ. ثم يفتح اقتباس من أوسكار وايلد طريقاً لنا: «معظم الأشخاص أناس آخرون». فيتجرّك شيء ما في داخلنا، ونفهم أن مقاصد الفيلم أكثر براغماتية ممّا كانت تبدو في البداية.

لقطة من «أفكّر في إنهاء الأشياء»

غموض الشخصيات صنع ثروة الرواية التي يستند إليها العمل

مقاصد الفيلم أكثر براغماتية ممّا كانت تبدو في البداية

يؤكّد السيناريو على ذلك من خلال اللجوء إلى الاقتباسات المتعدّدة والرحلات، في حين أن التصوير الفوتوغرافي الاستثنائي الذي قام به لوكاش زال، يوحي لنا بالانتقال من بياض الثلج إلى ظلام الليل، من تسلسلات الرسوم المتحرّكة بالأبيض والأسود إلى رقصة باليه رائعة يؤدّيها الراقصان الكلاسيكيان أونيتي فيلان وريان ستايل. المشهد، وهو أحد أكثر مشاهد الفيلم إثارة للذكريات، هو مفتاح آخر لرسالة أخرى تحيلنا إلى الغوص مجدّداً في ماضٍ لا نعرف بالضبط ما إذا كان يجب نسيانه أو أنه مجرد عود على بدء.

لكن، من ناحية أخرى، كوفمان، الذي تمكّن في التسلّل إلى عقولنا وافتدتنا في أفلام مثل «أشراقة أبدية للعقل الطاهر» الذي ترشّح لأوسكار أفضل سيناريو أصلي، و«أن تكون جون مالكوفيتش»، وهو أوّل فيلم بدأ به مسيرته الفنية، و«سينكدوكي، نيويورك»، و«أنومالييسا»، يريد فقط إرباكنا ولفت انتباهنا. لأننا، بعد كل شيء، مخلوقات فانية ومليئة بالأمل، وقد نستفيد أيضاً من الوقت المتاح لدينا لفكّ شفرة وهضم ما نراه. غموض أبطال الرواية هو وسيلة سرد مدهشة ومتطوّرة، وهو نفس الشيء الذي صنع ثروة الكتاب الذي يستند إليه الفيلم، والذي يتم فيه نقل الأحداث بأمانة وشمول: «داخل الولايات المتّحدة. طريق سريع صامت وفارغ، فقط ملامح مسطحة تُكرّر نفسها، أرجوحة، إسطبل، أغنام متوقّفة في ضوء النهار، حظائر وحقول. تجلس صديقة جايك في السيارة، تُصغي إلى موسيقى «كنتري» على الراديو، وتراقب الريف وتواصل التفكير بأنّ عليها إنهاء العلاقة معه؛ على الرغم من أن جايك، مع هذا الجو المُدلّه والمحادثات الشيقة، كان يثير في النهاية إعجابها».

هنا يبتعد كوفمان كثيراً عن الصفحة المكتوبة، ويختار نهايةً أكثر رؤية وشاعرية، ويهجّن اللغة التي اعتمدها في الفيلم حتى الآن مع البالية والموسيقى والرسوم المتحرّكة. عنصر آخر يُميّز كتاب إيان ريد عن الفيلم هو بنية القصة: فصول المؤلّف الكندي غالباً ما تسبقها أجزاء من محادثة بين شخصين غريبين حول حادث مروّع. فقط في نهاية الرواية، من خلال قراءة تلك الأجزاء التمهيدية واحدة تلو الأخرى، سيكون المدلول العام للفيلم واضحاً: «يمكن للفكر أن يكون أكثر واقعية، وأكثر صحّة من الفعل. يمكنك قول أي شيء، وفعل أي شيء، ولكن لا يمكنك ارتجال فكرة».

(كاتب ومترجم سوري يُقيم في ميلانو)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

صدر قديماً

أحمد رضا جمْعُ ما تناثَر من معاني العربية

تذكُّر «متن اللغة»

استغرق اللغوي الشامي سنوات في جمْع مادة «متن اللغة»، الذي كلّفه بوضعه «المجمع العلمي العربي» في دمشق، ولم يرَ النور إلّا بعد رحيله

نجم الدين خلف الله

بعد انبعاث مجامع اللغة العربيّة الأولى في القاهرة ودمشق في عشرينيات القرن الماضي، تأكّدت الحاجة إلى وضع معاجم جديدة، تُجمع فيها مئات المفردات التي ظهرت في عالمنا العربي، إبّان عصر النهضة وما توالد خلالها وبعدها من جديد المعاني. وكان من بواكير هذه الأعمال المغمورة، بعد «محيط المحيط» للبُستاني (1819 - 1883)، كتابُ «مَتْن اللغة»، بأجزائه الأربعة، الذي ألّفه اللغوي الشامي أحمد رضا (1872 - 1953)، المولود في مدينة النبطيّة جنوبي لبنان.

ففي سنة 1930، كلّف المجمع العلمي العربي في دمشق هذا الشيخ بإعداد معجم مُطوّل، يرتّب فيه ما تناثر من معاني العربية في بطون المُطوّلات اللغويّة القديمة، على أن يضيف إليها ما استُحدث من المفردات الطارئة في العقود الأولى من القرن العشرين. قبل أحمد رضا هذه المهمّة الصعبة وأمضى سنين طويلةً في جمع ما وزع في المتون القديمة وتنسيقها، وأعلاها خمسةً: «لسانُ العرب» لابن منظور، «القاموس المحيط» للفيروزابادي، و«التاج»، وهو شرح «القاموس المحيط» الذي وضعه الزبيدي، مع «أساس البلاغة» للزّمخشري و«المصباح المنير» للفيّومي. فكان يقارن شروحها وينقحها ويبسطها، ويضيف ما وَرد في المعاجم التي صيغت أواخر القرن التاسع عشر، رغم سوء ظنّه بها.

فقد أضاف إلى المتن الكلاسيكي المُولَّد من الكلمات ثمّ أفرد لها كتاباً خاصّاً سماه «التذكرة في الأسماء المُنتَخَبة للمعاني المستخدَمة»، وعندُها، آنذاك، زُهاء 758 كلمة، 132 من تعريبه هو بنفسه، والبقيّة من نتائج أنظار المجامع اللغوية، في مصر وسورية. وهو ما يؤكّد أنّ الرّجل كان من آباء التوليد المُنسَيين، مع أنه أثبت عشرات المصطلحات حسب قواعد الاشتقاق والاستحداث. ولم يُهمل الكلمات العامّيّة التي لها أصول فصيحة، فردّها إليها وأفردها بتأليف: «ردُّ العامي إلى الفَصيح»، وأصدر كلّ ذلك تدريجيّاً ضمن الأعداد المتابعة من مَجلة «المَجمع».

وفي سنة 1947 أي بعد سبعة عشر عاماً قضاها في التدقيق والتحقيق، أتمّ هذا العمل وجهّزه للطبع، ولكنْ لم يَهدأ باله حتّى الحق به «الوسيط» و«الموجز»، تبسيطاً لهذا المتن واختصاراً له، حتى يستفيد منه الطلبة المبتدئون.

وقد وطّأ رضا لهذا المعجم بمقدّمة نظريّة بيّن فيها القواعدَ العامّة التي صدر عنها في إنجاز «مَتْنه»، وما ضمّنه من آراء حول اللغة وأصلها التواضعي وحاجة الإنسان إليها وطابعها الاجتماعي-الاصطلاحي، مع تذكير بتاريخ الضاد وأهمّ مواطن نشوئها وأبرز التطوّرات التي شهدتها، وهو ما يصلح أن يكون «مقدّمة» عامّة للضاد، نأمل أن تُطبع على حدة وأن يتوسّع فيها أهل الاختصاص.

أمّا منهجه في ترتيب الكلمات، فيعتمد أصل المادّة، مُجرّدةً من زيادات الحروف، حسب الترتيب الألفبائي. وهذا حالُ معاجم اللغة العربيّة، قديمها وحديثها. وقد برّر اختياره بأنّ غير الضاد قد ينقاد للترتيب على حروف الكلمة، ولكنْ تمنع منه طبيعتُها الاشتقاقيّة. وضمن شرح المادّة يبتدئ بالمُجرّد فالمزيد؛ وفي الأسماء، يبدأ بمفتوح الفاء ثم مضمومه، فالمكسور، موردا ما جاء في كُتب الأقدمين من الشروح مع الإعراض عن الغريب المُهجور، وإدماج العامّي ذي الأصول الفصيحة.

إلّا أن فاجعةً زَرّات الشّيخَ في ابنِهِ البِكر، إذ تُوفّي ولِيدُه في عنفوان الشباب، ما أثّر فيه والزمه الفراش وعطّل مواصلة العمل سنتين. وما أن تعافى قليلاً حتّى توفي سنة 1953، بعد أن أصيب بحجرٍ طائشٍ أثناء مظاهرة انتخابيّة.

يصلح توطيء المعجم، الغنيّ، مقدّمة عامّة للغة العربية

في النبطيّة، مدينته، فحُمل إلى منزله ولم يَكد يَصل حتّى فاضت روحُه، هدراً. هكذا، لم يُصدر الكِتاب في حياته، وكاد أن تضيع جهوده سدىً. ولحسن حظّ الضاد، خَملت «دار الحياة اللبنانية» انذاك مشروع نشره، بمساعدة فاعل خير كويتيّ مجهول، حيث كانت الحاجة ماسّة لطبع هذه الأعمال الخمسة مجتمعةً، وهي متاحة في أيدي الناس منذ 1958.

ويظل تساؤل حارقٌ يؤرّقنا: لماذا لم ينتشر هذا العمل الجليل أكثر بين الناس؟ ألأنّه نفسه قد تجاوزته الحاجة إلى مُعجم حديث؟ أم لأنه اعتمد القواميس القديمة، فعُدّ مجرّد تكرار وتشذيب لها؟ أم أنها القصّة الحزينة التي طاولت صاحبه مع ما هزّ لبنان والمنطقة العربية من أحداث جعلت هذه التحفة المعجميّة تضيع في لظى الطائفيّة؟

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

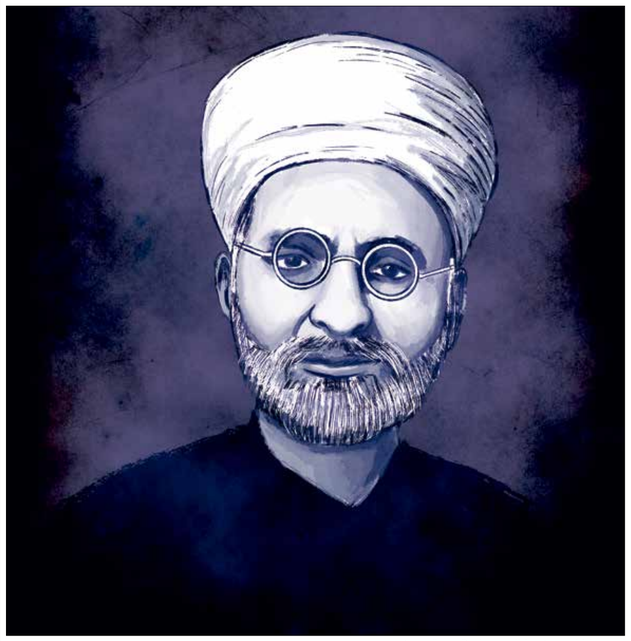

أحمد رضا في بورتريه لـ أنس عوض (العربي الجديد)

فعاليات

المعرفة من أجل الصالح العام عنوان حلقة نقاشية يُقيمها **المجلس العربي للعلوم الاجتماعية**، عند الخامسة من مساء السبت المقبل، عبر منصّة «زووم»، ضمن سلسلة جلسات لمناسبة ذكرى تأسيسه العاشرة. يُشارك في الجلسة: راجي اسعد، ودومينيك بايني، ولاورا روفيلي، وتشارلز كورزمان، ومبروك بوطقوقة، وساري حنفي.

عند السابعة والنصف من مساء اليوم الإثنين، تستضيف «ساقية عبد المنعم الصاوي» في القاهرة حفلا لفرقة **ورشة عجم**، التي يقودها الموسيقي **مصطفى حسين**. تقدّم الفرقة أعمالا تمزج بين ألوان موسيقية عربية، من التراث الطربي ومن الفولكلور المصري، وأخرى غربية، كما تعيد توزيع بعض العناوين المعروفة على آلات الكترونية وو تريّة، يرافقها كورال غنائي.

تنطلق، مساء اليوم الإثنين، فعاليات الدورة السابعة من **مهرجان الإسكندرية للفيلم القصير**، وتستمرّ حتى العاشر من نيسان/ابريل الجاري، بمشاركة 41 فيلما سينمائيا تتنافس ضمن اربع فئات؛ هي: الوثائقي والروائي والتحريك، بالإضافة إلى افلام الطلبة. تُكرّم الدورة الممثّل المصري باسم سمرة.

حتى الثالث والعشرين من حزيران/يونيو المقبل، يتواصل في **غاليري ديوانية الفن** بالجزائر العاصمة معرض **جسور** للتشكيلي الجزائري **علي بوخالفة** (1948). يقدّم بوخالفة مجموعة من اللوحات التي انجزها في السبعينيات والثمانينيات، وتتناول التراث الجزائري والصناعة التقليدية والهندسة المعمارية في الجنوب الجزائري.

يوميات

غريبٌ يقسّم وجبته غداءً وعشاء وفطوراً

قطعة جُبن تساوي العالَم

نصف مكعّب يكفي تقريباً للغد. وفي أحسن الأحوال ـ لو صغّرت لُقمتي إلى أصغر حجم ـ سيتبقّى منه القليل إلى ما بعد الغد صباحاً، وهذا إنجاز

المعتصم خلف

البرد الخفيف في الهواء، الدكاكين المغلقة، رائحة الرطوبة والعفن، ونصف مكعّب جُبن في يدي. نصف مكعّب صغير بحجم طائر أقبض عليه بهدوء وأنا أتخيّل كيف تنازلتُ من أجله عن شراء التبغ. كنت أمام خيارين: إمّا الأكل أو التدخين. وأنا، كرجل ناضج، يجب أن أختار ما قد يسدّ رمقي حتّى الغد، مع أن هناك شيئاً ما زال في داخلي يريد التبغ، واظن أنّهُ الجزء الأنضج مني.

نصف مكعّب يكفي تقريباً للغد. وفي أحسن الأحوال ـ لو صغّرت لُقمتي إلى أصغر حجم ـ سيتبقّى منه القليل إلى ما بعد الغد صباحاً، وهذا إنجازٌ أستحقّ من أجله الظهور في الإعلام كمواطن صالح تقريباً، يستطيع أن يصنع من مكعّب جبن واحد وجبة غداء وعشاء وفطور. هذه هي القسمة التي اعتدت عليها. أن آكل وكأنّني أقود عمليّة حسابية عقيمة، مستحيلة الحل؛ أضرب الأخماس بالأسداس وأقسّم المعلوم على المجهول، إلى أن أصل إلى جزء متبقٍّ يكفي لوجبة أخرى.

وضعتُ مكعّب الجبن على طاولة المطبخ، في منتصف الطاولة، كمزهريّة، وتأمّلته كانتصار، كسلاح سرّي يمكنني أن أشهره في وجه العالم. هذه حصيلة تعبي. مكعّب صغير يرتقي ليكون حبل نجاة. هذا هو حبل نجاتي الذي سوف يحميني حتّى الغد من الجوع. لقد عملت من أجله ليومين كاملين، وقدّمت من أجله كلّ طاقتي؛ تحمّلت من أجله أوغاداً من الذين لو استطاع الأطباء وضع أسنان ولسان في سُرّة بطونهم ليتحدّثوا من مكانين عن إنجازاتهم عندما قالوا لا...

سأل لُعابي بهدوءٍ وأنا أتخيّل كيف سيكون طعمُ الجبن في فمي. ركضتْ مشاعري بهدوء وأنا أفتح الغلاف الشفاف، وقفزتْ معدتي من مكانها جوعاً، تريد احتضان الجبن قبل استقباله. بهدوء، بدأت أقيس أنملتين من أصابعي لكلّ وجبة: رفاهيّة لا أقوى عليها الآن. جلبت الخبز وكوباً من الماء وتركت الجبن يذوب كقطعة قطن تحت لساني، بحملني الطعم ويأخذني نحو سعادة الشبع، يقرّبني من الجنّة وينبض بفرح غامض بين أسناني.

ولا يكفي أن أشبع لأقول إنّ الجبن يكفي للشبع، بل يكفي لمرحلة ما قبل الشبع بقليل، هذه المرحلة الذي تدّعي فيها الشِبَعَ في منازل الغرباء.

غريبٌ يقسّم وجبته بطريقةٍ غريبة، ليأكل وكأنه يتناول وجبته أمام ضيوفٍ فاجأهم بزيارة. هكذا صارت حياتي. وحياةُ أكثر من خمسين في المائة من سكّان هذه المدينة...

تُعلّمني بيروت، يوماً بعد يوم، أنّ الحياة تتطلّب التنازل، والاختيار بين الجُبن أو التبغ. هل أتناول الآن القطعة الكبيرة أم الصغيرة من الجبن؟ هل أجلب الدواء أم الخبز؟ خياراتٌ مفتوحة، عليك أن تتنازل فيها عن شيءٍ ما مقابل شيء آخر... لتكتشف في النهاية أنّك تطوّع حياتك للتعايش كمعتقل صغير. عليك أن تُحسن الاختيار في أسوأ الأحوال، لكي تنجو.

(كاتب سوري فلسطيني)

تعلّمني بيروت، يوماً بعد يوم، أنّ الحياة تتطلّب التنازل

سلوى روضة شقير، زيت على قماش، 1959